

البحث في معطيات وضع عالمي جديد (٢ من ٢)

جذور التغيير في النظام الدولي

علي الدين هلال *

فيها القيم الجديد. وهذه المرحلة تكون فيها بالضرورة عناصر «غموض» وبؤر توتر وعدم استقرار، وربما قدر من الفوضى والاضطراب لأن القواعد القديمة للتعامل لم تعد هانئة أو مناسبة، والقواعد الجديدة لم تستقر بعد لو لم يالفها الناس.

لهم يعرف ان هذه التحولات ليست مفاجئة بل من صنع حدث كبير أو زعيم. انها تحولات متراكمة وتتكاثر منذ اعوام طويلة مضت فهاهم يتحدثون مثلا عن الوحدة الأوروبية عليهم تذكر انها بدأت باتفاقية روما عام ١٩٥٨، بل كانت بذرتها الاولى منظمة الحديد والصلب في نهاية الاربعينات وعليهم تذكر دعوة الرئيس الفرنسي شارل ديغول الى وحدة أوروبا من الاطلسي في الاورال.

ولما الاتحاد السوفياتي لم تظهر مع غورباتشوف بل كانت هناك تظاهرات في ألمانيا الشرقية وبولندا عام ١٩٥٥، واستعاضة الشعب المجري تحت رئاسة ايمري ناجي عام ١٩٥٦، وكانت محاولة الإصلاح قلبي قايها خروشوف، وكانت المواجهة في براغ عام ١٩٦٨.

واذا كانت هذه التطورات لم تبدأ فجأة أو بين يوم وليلة فهي أيضا لم تطرح كل اثارها بعد، ولم تفصح عن كل نتائجها. كذلك من غير الصحيح اعتبار ان هذه التحولات سياسية وحسب، بل ان هناك جوانب اقتصادية وتكنولوجية. وليس من المبالغة القول ان التحولات السياسية هي في الحقيقة حاصل ونتاج التحولات الاقتصادية والتكنولوجية.

فماذا نرى في عالم اليوم؟

نرى لولا ثورة علمية وتكنولوجية تجتاح العالم في مجالات التكنولوجيا الحيوية واحلال المواد، وفي مجالات الحاسب الآلي والاتصالات، وفي مجالات الفضاء والتحكم عن بعد، وهذه الثورة

■ عند الحديث عن النظام الدولي الجديد ينبغي التمييز بين المفهوم العلمي لهذا التعبير والدلالات السياسية او الاعلامية له. ذاع هذا التعبير عندما استخدمه الرئيس بوش في خطابه الذي اعلن فيه انتهاء العمليات العسكرية في حرب الخليج الثانية، فتصور الكثيرون ان هذا التعبير من اختراع الرئيس الاميركي، او ان هذا النظام الدولي الجديد هو نتيجة لحرب الخليج. وهذا غير صحيح تماما، فلا التعبير من اختراع بوش، ولا هو نتيجة لحرب الخليج. الصحيح ان الدعوة لاقامة نظام عالمي جديد هي دعوة تبنتها الدول النامية خلال حقبة السبعينات. ولعلنا نتذكر ان الجزائر دعت لاتحاد ثورة خاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة لبحث موضوع النظام الاقتصادي العالمي الجديد. ولعلنا نتذكر الدعوة الى اقامة نظام اعلامي عالمي جديد. ومن الناحية الاكاديمية فان الفكرة معروفة في الجامعات ومراكز البحوث، ومن وقت بعيد نحدث رمون ارون عن المجتمع ما بعد الصناعي.

والصحيح ايضا ان حرب الخليج لم تكن السبب في إيجاد هذا النظام، بل كانت المناسبة التي استخدمتها البيبلماسية الاميركية لتبشیر هذا المفهوم وترويجه اعلاميا وعلميا.

والموقف الذي نعتقده ان هذا النظام العالمي الجديد لم يتبلور نتيجة حدث أو واقعة بعينها، وانما تمتد جذوره لسنوات طويلة. كما ان هذا النظام لم يتبلور بعد تماما، ولم تظهر نتائجه كلها بعد، فلا هو ظهر فجأة كما يتصور البعض، ولا هو اكتمل تشكيلة بعد.

هذا النظام العالمي الجديد لا يزال في مرحلة التبلور والتكون. فنحن في مرحلة انتقالية. مرحلة سيولة دولية، ومرحلة انتقال من وضع الى وضع، مرحلة يختلط

المعضلة التي تطرحها هذه الأوضاع هي كيفية تنظيم الحياة الدولية في ظل قوة واحدة كبيرة، وهي معضلة لتلك القوة وللآخرين أيضا. من وجهة نظر تلك القوة فإنها تواجه مشكلة: من هو العدو؟ فان قوة كبيرة تكتسب تضامنها الداخلي وشرعيتها الخارجية من وجود عدو، فماذا هي الحال عندما يختفي العدو؟ وماذا تكون اسباب تفسير وتبرير شرعية هذه للقوة؟ ومن وجهة نظر الدول الأخرى فان وجود قوة واحدة كبيرة يطرح مشاكل في التعامل وفي تحديد مجالات حرية الحركة والمناورة.

الوجود المنفرد لقوة واحدة قد يغيرها بالاستعداد والطيش وهو ما سماه وليم فولبرايت مرة «حماقة القوة». كما انه قد يجعلها أقل مراعاة لحساسيات الاطراف الأخرى مما يؤلب عليها الآخرين ويدفعهم الى التعاون والتحالف في مواجهتها. في الوقت نفسه فان ظهور قوى أخرى ليس مسألة تتعلق بالرغبات والامنيات ولكن بطبيعة التوازن الدولي.

والوضع الدولي الراهن يشهد مجموعة من المفارقات المتعلقة بالتوازن على قمة العالم، للولايات المتحدة بالتأكيد هي القوة القائدة عسكريا واستراتيجيا وتفوق الآخرين بمسافة، والجمهورية الروسية هي قوة عسكرية كبيرة على رغم كل الانهيار السياسي والاقتصادي الذي اصابها. من الناحية الأخرى فإن اليابان والمانيا تمثلان قوتين اقتصاديتين عملاقتين ولكن من دون اسنان عسكرية. وهكذا فان العالم يشهد تمايزا بين القوى العسكرية الكبرى والقوى الاقتصادية الكبرى، والارجح ان ذلك سيستمر لفترة.

ونحن في الدول العربية تعودنا لمدة طويلة على ان نعيش في عالم ثنائي القطبية، ومصالحنا على الأرجح هي في هذا الاتجاه. لكن هناك فارقا بين ما نريده وبين ما يحدث على ارض الواقع، وحتى مع قبول الراي بان اليابان ودول أوروبا سوف تصبح اقطابا دولية، فإن السؤال يشور عن الوقت اللازم لتحقيق ذلك.

كثيرون يرغبون في ان يفتحوا عيونهم ليجدوا عالما متعدد الاقطاب، بسمح لهم بحرية حركة اكبر، وبقدرة على المناورة. لكن يبقى السؤال: الى ان يحدث ذلك كيف نتعامل مع العالم الذي نعيش فيه؟ كيف نتعامل معه بما يضمن حقوقنا الاساسية ومصالحنا الحيوية؟ هذا هو السؤال.

* استاذ في كلية الاقتصاد في جامعة القاهرة ومدير مركز البحوث والدراسات السياسية فيها.

تحدث بوتيرة متسارعة وتؤدي الى عملية جديدة تحت نواج كثافة الاتصالات وسرعتها وسهولتها.

ونرى ثانيا مزيدا من الاعتماد الاقتصادي المتبادل تحت تاثير تدويل الاقتصاد والعلاقات الاقتصادية وانهيار حاجز المسافات، والانتقال السريع للثروات الموجودة الآن في شكل سندات واسهم وودائع عبر البنوك والبورصات. ونرى تزايد التمييز بين الحدود السياسية للدول والحدود الاقتصادية لمجالات النشاط فلم تعد الدولة هي محور النشاط الاقتصادي من وجهة نظر المستثمر الخاص. يرتبط بذلك مزيد من التكامل الصناعي الاقليمي، والتأكيد على دور القطاع الخاص، والاتجاه نحو التكتلات الاقتصادية العملاقة والاسواق الكبيرة.

ونرى ثالثا مجموعة من التطورات السياسية التي يمكن وصفها بسقوط الشمولية السياسية والانساق الفكرية المغلقة التي ارتبطت بها وازدياد الاتجاه نحو احترام حقوق الانسان، والتطور الديمقراطي والاخذ بنظام تعدد الاحزاب. ولا يعني هذا قط الانتصار النهائي لايدولوجية ما، كما يقترح فوكوياما، او نهاية لتاريخ بمعنى نهاية الصراع بين الافكار حول معنى الحياة الفاضلة على الارض وكيفية تحقيقها. بالعكس نعلم ان جوهر لفكرة الليبرالية السياسية هو التعدد وهو استمرار البحث عن الحياة الفاضلة وجوهاها ان باب التغيير يظل مفتوحا دوما، وانه لا توجد صورة نهائية او مطلقة للمجتمع الفاضل.

ونرى رابعا انتهاء الحرب الباردة باختفاء الاتحاد السوفياتي والاتجاه الى وضع يكون فيه للولايات المتحدة دور مقيم وقائد. وانهاء الحرب الباردة لا يعني انتهاء للصراعات السياسية، لكنه يعني تحولا كيميا وكيفيا في مفهوم الصراع الدولي. ففي ظل الحرب الباردة كان هناك صراع مركزي بين دولتين وكتلتين وحلفين وايدولوجيتين مساحتها الكرة الأرضية، ومجالاته الاقتصاد والسياسة والاستراتيجية والدعاية. هو صراع شامل وكلي. هذا الصراع هو الذي انتهى باختفاء احد اطرافه وتسليمه بالهزيمة. لكن الصراعات ذات الاساس الاقتصادي او الديني او القومي بين الشعوب او القوميات ستستمر.